

البحث الصوتي عند العرب
في ضوء الدراسات الصوتية الحديثة
سبويه نموذجا

سفيان ابحيبي

البحث الصوتي عند العرب في ضوء الدراسات الصوتية الحديثة

"سيبويه" نموذجاً

الطالب الباحث: سفيان الجبجي

تمهيد:

يعد الصوت الإنساني المادة الأولى في الدراسات اللغوية لأي لسان من الألسن البشرية، ويجمع الدارسون على أنه يمثل المستوى الأول من مستويات الدرس اللغوي، وله تأثير جلي على المستويات الدراسية الأخرى. وتعتبر الدراسات الصوتية قديماً من أصل العلوم عند العرب، لأنها اتصلت مباشرة بتلاوة القرآن الكريم (علم التجويد)، لذلك حظيت باهتمام خاص، نظراً للعلاقة المتينة بالخطاب القرآني.

وقد كان العرب سباقين إلى دراسة أصوات لغتهم، فقدموا في هذا الشأن بحثاً قيمة شهد لها المحدثون. وكان الدين الإسلامي من العوامل الهامة التي ساعدت على نضج هذه الدراسة؛ إذ حفزه الشعور الديني للحفاظ على لغة القرآن خوفاً من اللحن والخطأ والتحريف والتغيير في غياب الحركات التي تعد معياراً للنطق السليم، فكانت بصماتهم واضحة في ظهور علم الأصوات ونشأته، فقد وصفوا لنا الصوت اللغوي وصفاً دقيقاً، على الرغم من اعتمادهم فقط على الملاحظة الذاتية التي تعتمد الحس الدقيق، والأذن الموسيقية المرهفة.

وتحسن الإشارة إلى أن البحث الصوتي العربي لم يضمه مصدر واحد ولم يتناولوه عالم واحد، ولكنه تناثر بين طيات مصنفات علوم العربية المختلفة، النحوية والصرفية والبلاغية، والتجويدية وإعجاز القرآن والمعاجم، كما تعدد العلماء الذين شاركوا في إقامة صرحه وتوطيد بنيانه. ومن الأعلام الذين ضربوا بسهم وافر في عدة نواح من الدراسة اللغوية، وكانت لهم اليد الطولى في تأسيس الدرس الصوتي نجد الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت175هـ) والذي طالعنا بكتاب "العين" الذي يعد مرجعاً صوتياً مهماً للدارسين، وما أضافه تلميذه سيبويه (ت180هـ) في مؤلفه الكتاب من جهود صوتية لا تزال موضع اهتمام العلماء العرب نظراً لدقتها وشموليتها واتساعها، ثم ما كتبه عالم زمانه ابن جني (ت392هـ) في كتابيه (سر صناعة الإعراب، والخصائص)، من معلومات صوتية مهمة جداً. ونسعى من خلال هذا البحث المتواضع، إلى إبراز الجهد العلمي المتميز لشخصية "سيبويه" واهتمامه بالقضايا الصوتية من خلال سفره "الكتاب" كنموذج لبوادر الدرس الصوتي عند العرب. إذ تطرق في كتابه لقضايا صوتية مهمة خاصة في باب الإدغام الذي قدم فيه المبادئ الرئيسة للدرس النظري للأصوات، كما أشار فيه إلى ما يتطلبه فهم الإدغام من تعيين حروف العربية، وبيان مخارجها، وشرح مجهورها ومهموسها، وما يستكمل به درسها من الصفات. ومع أن هذا الباب الفرعي لا يمتد إلا على خمس صفحات ونصف، فإنه ضم مسائل رئيسة من مسائل الدراسة الصوتية التي أثرت في الدراسات اللاحقة، وكشفت عن أفكار عميقة وآراء مبتكرة.

ونود الإشارة، ههنا، إلى أننا حاولنا عقد بعض المقارنات بين ما وصل إليه سيبويه في ميدان الدرس الصوتي، وما وصلت إليه الدراسات الصوتية الحديثة في هذا الميدان. وهكذا جاء هيكل دراستنا لهذا الموضوع وفق الآتي:

1. حروف العربية من حيث العدد.
2. حروف العربية من حيث المخارج.
3. حروف العربية من حيث الصفات.

أولاً: حروف العربية من حيث العدد

عد سيبويه أصل حروف العربية تسعة وعشرين حرفاً هي: الهمزة، والألف، والهاء، والعين، والحاء، والغين والخاء، والكاف والقاف، والضاد، والجيم والشين والياء، واللام والراء والنون والطاء والذال والتاء والصاد والزاي، والسين، والظاء والذال والتاء، والفاء والباء والميم، والواو؛ غير أنها من الممكن - كما يقول - أن تصبح خمسة وثلاثين حرفاً بحروف هن فروع، وأصلها من التسعة والعشرين، وهي كثيرة يؤخذ بها وتستحسن في قراءة القرآن والأشعار، وهي النون الخفيفة، والهمزة التي بين يمين، والألف التي تمال إمالة شديدة، والشين التي كالجيم، والصاد التي تكون كالزاي، وألف التفتيح، يعني بلغة أهل الحجاز في قولهم: الصلاة، والزكاة، والحياة، وتكون اثنين وأربعين حرفاً بحروف غير مستحسنة في قراءة القرآن ولا في الشعر، وهي: الكاف التي بين الجيم والكاف، والجيم التي كالكاف، والجيم التي كالشين، والصاد الضعيفة، والصاد التي كالسين، والطاء التي كالتاء، والظاء التي كالتاء، والباء التي كالفاء، وهذه الحروف التي تمتها اثنين وأربعين، جيدها وورديتها، أصلها التسعة والعشرون، لا تتبين إلا بالمشاهدة¹.

يتضح لنا، من هذا التصنيف الصوتي، الذي قدمه سيبويه، أن تصور هذا العالم للأصوات العربية يتوزع إلى ثلاثة أقسام، هي:

- حروف عربية أصلية وعددها تسعة وعشرون حرفاً.
- حروف عربية فرعية مستحسنة، وعددها ستة أحرف.
- حروف عربية فرعية غير مستحسنة، وعددها سبعة أحرف.

1. الحروف العربية الأصول

يقصد سيبويه بالحروف التسعة والعشرين، التي عددها أصل حروف العربية فيما يبدو - فونيمات اللغة العربية من صوامت

Consonants، وحركات Vowels.

2. الحروف العربية الفرعية مستحسنة:

عرض سيبويه - بعد الحروف التسعة والعشرين السابقة التي سماها أصل حروف العربية - ستة أحرف أخرى اعتبرها متفرعة من بعض تلك الحروف الأصول. وهذه الأحرف هي:

- النون الخفيفة: ويقصد بها النون الخفيفة وهي غير النون الخفيفة التي تكون مخففة من نوني التوكيد، بل هي النون الساكنة التي تظهر في حالة ما يسمى (بالإخفاء)، وتأخذ حكم النون إذا سُكنت قبل خمسة عشر صوتاً، وهي: (ت، ث، ج، د، ذ، ز، س، ش، ص،

¹-الكتاب، سيبويه، تحقيق عبد السلام محمد هارون، عالم الكتب، بيروت، 1975. ج4/431.

ض ، ط ، ظ ، ف ، ق ، ك) كما أنها- النون الخفيفة- تسمى (الغنة) وتخرج من الخيشوم². ولعل في كلام الدكتور تمام حسان ما يفتح الأبواب للحديث عن صور نطق النون الكثيرة والتي لم يلاحظ منها سيبويه إلا ما سجله، والحقيقة أن صور نطق النون كثيرة وتعتمد على السياق³. وهذا ما ذهب إليه الدكتور كمال بشر في قوله " ولعل مسألة التعدد هذه تظهر بصورة أجلى وأوضح في حال صوت كصوت النون مثلا فالنون مصطلح عام يشمل مجموعة من النونات، كذلك التي في: إن تاب، وإن قال. فكل واحدة منها تختلف عن أختها في موضع النطق ولكننا بالرغم من ذلك قد اصطالحنا على ضم هذه النونات بعضها إلى بعض وإدخالها تحت اسم واحد هو "صوت النون"⁴.

وعلى أي حال، فإن النون التي تحدث عنها سيبويه، وعدها من الحروف المستحسنة ماهي سوى تنوع صوتي (ألفون) متفرع عن الوحدة الصوتية الأساسية الفونيم التي أطلق عليها سيبويه مصطلح النون.

- الهمزة التي بين بين: وهي الهمزة المسهلة⁵، التي لا يضغط الناطق على أوتار الحنجرة عند أدائها، وهي عند التحليل مندمجة في الحركة التالية لها لمخففة⁶ ووصفها الدكتور تمام حسان بقوله: "هي همزة متحركة تكون بعد ألف أو بعد حركة فتصير في النطق مجرد خففة صدرية لا يصاحبها إفعال للأوتار الصوتي"⁷. كما في قوله تعالى "أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ"⁸

وتعد هذه الهمزة، التي وصفها القدماء بأنها فرع الهمزة المحققة، تنوعا صوتيا للوحدة الصوتية (الهمزة)، التي أوردتها سيبويه ضمن الحروف التسعة والعشرين التي أطلق عليها أصل حروف العربية.

- الألف الممالاة إمالة شديدة: ويقصد بها الألف التي ينحى بها نحو الياء. وقد نص سيبويه- في موضع آخر من كتابه- على أن " الألف تمال إذا كان بعدها حرف مكسور، وذلك كقولك عابد، وعالم، ومساجد، ومفاتيح...، وإنما أمالوها للكسرة التي بعدها، أرادوا أن يقربوها أي الألف منها أي الكسرة كما ترتبط بالألف ذات الأصل اليائي في مثل ما نقرا في قوله تعالى: " والضحي والليل إذا سجي" وقوله تعالى " بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا"⁹ "بإمالة ألف (مجراها) لتصبح (مجريها) بالكسرة"¹⁰.

ويبدو ان الذي أحدث الإمالة في الألف، هو - كما يفهم من كلام سيبويه- إحداث نوع من المماثلة بين الأصوات المتجاورة، فوقعها قبل كسرة خالصة، أدى إلى تأثير الألف بهذه الكسرة تأثيرا رجعيا فحولت بدورها إلى حركة طويلة تقع نطقيا بين منطقتي نطق الألف والياء.

وعلى هذا، فإن هذه الألف، التي نص عليها سيبويه، وعدها من الحروف المستحسنة، ماهي إلا تنوع صوتي أوفوني للوحدة الصوتية الفونيمية المسماة ألفا.

² - اللغة العربية معناها ومبناها، د. تمام حسان، دار المعارف، ط 5 ص. 53.

³ - علم الصوت العربي في ضوء الدراسات الصوتية الحديثة، قاسم البريسم، إفريقيا الشرق، 2018، ص 23.

⁴ - علم اللغة العام، الأصوات، كمال بشر، دار المعارف، 1971 ص. 156.

⁵ - همع الهوامع، السيوطي، دار المعرفة للطباعة والنشر. بيروت، ج 229/2.

⁶ - الكتاب سيبويه 4/324.

⁷ - اللغة العربية معناها ومبناها ص. 53.

⁸ - سورة المائدة، الآية 116.

⁹ - سورة هود، الآية 9.

¹⁰ - الكتاب، سيبويه، 4/324.

- الصاد التي تكون كالزاي: هي تلك الصاد الساكنة قبل صوت مجهور، في مثل نطقنا للكلمة (مصدر) ، حيث تنطق الصاد مجهورة. وصفة الجهر التي اكتسبتها هذه الصاد الفرعية كانت نتيجة تجاورها مع الدال المجهورة أصلاً¹¹ وقد بين سيويه ذلك الأثر فقال " ولا تفعل ذلك بالصاد مع الراء والقاف ونحوهما، لأن موضعهما لم يقرب من الصاد كقرب الدال"¹².

- الشين التي كالجيم: ويقصد بهذا الصوت، الذي عده سيويه حرفاً مستحسناً، صوت الشين المهموس، الذي يمكن أن يقع، في بعض السياقات النطقية، ساكناً وامتلاً بصوت مجهور. ومن شأن هذا أن يؤدي إلى تآثر صوت الشين بالصوت المجهور التالي له مباشرة. ويقدم سيويه واللغويين الذين جاءوا بعده وتأثروا به لهذه الظاهرة بالفعل "أشدد" الذي يصبح في نطقهم، أو في نطق بعضهم، كأنه "أجدق". وسبب هذا التغيير هو أن الدال حرف مجهور شديد، والجيم كذلك حرف مجهور شديد، والشين مهموس رخو، ومن ثمة فهي ضد الدال، ولذلك قربوا الجيم من الدال لتقاربهما في المخرج.¹³

والواقع أن صوت الشين الذي يشبه صوت الجيم، والذي صنفه سيويه ضمن الحروف المستحسنة، هو صورة متفرعة عن فونيم الشين.

- ألف التفخيم: حددها سيويه بقوله " يعني بلغة أهل الحجاز في قولهم: الصلاة والزكاة والحياة"¹⁴. ويعني بما ألف المد المماله نحو الضم في قراءة بعض القراء لكلمات (الصلاة - الزكاة - الحياة - المشكاة) وينطقها أهل الحجاز في كلمات لا يتطلب سياقها الصوتي تفخيماً، فيفخمون الألف في كلمات معينة، فترسم تلك الألف هكذا(الصلوة - الزكوة - الحيوة - مشكوة) في حين أن الألف غير المفخمة لا ترسم في المصحف العثماني، فنكتب كلمات (الكتب - الصدقت - الأنعم) بدون ألف

3. الحروف العربية الفرعية غير المستحسنة

أضاف سيويه إلى الأحرف الستة الفرعية السابقة، سبعة أحرف أخرى متفرعة من بعض تلك الحروف العربية الأصول، غير أن هذه الأحرف الفرعية تختلف عن سابقتها في كونها غير مستحسنة، ولا كثيرة في لغة من ترتضى عربيته، ولا تستحسن في قراءة القرآن ولا في الشعر. وهذه الأحرف هي:

- الكاف التي بين الجيم والكاف، والجيم التي كالكاف: لم يشرح سيويه المقصود بصوت الكاف التي بين الجيم والكاف، وصوت الجيم التي كالكاف، كما أنه لم يمثل لهما أيضاً. ويبدو أن كلا الصوتين يدل في النهاية على صوت واحد، وإن كان الخط التطوري، الذي سلكه كل واحد منهما، يختلف عن الخط التطوري الذي سلكه الآخر. فسيويه - من ناحية - جعل الحروف العربية الخمسة والثلاثين اثنين وأربعين حرفاً، وذلك بإضافة أحرف وصفها بأنها مستحسنة، وعدد هذه الأحرف المضافة لا يمكن أن يكون إلا سبعة أحرف حتى يكتمل بما عدد الحروف الخمسة والثلاثين اثنين وأربعين. ومن ناحية أخرى، فإن وصفه للكاف، التي بين الجيم والكاف، والجيم التي كالكاف، يدل على وصف واحد، فصوت الكاف الطبقي الانفجاري المهموس، يتخذ، عندما يتقدم مخرجه إلى الأمام، حيث مخرج الميم

¹¹ - علم الأصوات اللغوية، مناف، 164.

¹² - الكتاب، سيويه 196/4.

¹³ - شرح المفصل، ابن يعيش، عالم الكتب، القاهرة، مكتبة المتنبى، ج10/126

¹⁴ - الكتاب، سيويه، ج4/432.

الغاري، صفة الجيم، وهي الصفة المركبة من الدال الانفجارية، والجيم المعطشة، مع احتفاظه ببعض خصائصه ولا سيما الهمس. أما الصوت الذي وصفه سيبويه بأنه (جيم كالكاف)، فهو - فيما يبدو - صوت الجيم، وقد تعرض للتهميس، وفقدان صفة الجهر.

وعلى هذا، فإن هذين الصوتين هما، في النهاية، صورة صوتية واحدة أو متقاربة لأصليين صوتيين مختلفين؛ أولهما: كاف تحولت إلى صورة صوتية بين الجيم والكاف، وثانيهما: جيم تحولت إلى صورة صوتية تشبه الكاف.

- الجيم التي كالشين: سبق الحديث عن الشين كالجيم المستحسنة، وعندما انقلبت جيماً، ونحنا صوتها المهموس نحو الصوت الجهور (أشدق- وأجدق) وفي قلب هذه الصورة قبح واستهجان، على ما أورده سيبويه، حين وصف الجيم كالشين بالاستهجان، (اشتهد في اجتهد)، ويمكن تعليل هذه الظاهرة بالاستحسان، في ميل الصوت نحو القوة (أجدق= اشدق) ووصفها بالاستقباح عندما ينحو الصوت نحو الضعف (اشتمع= اجتمع) وهي عكس الأولى¹⁶.

- الضاد الضعيفة: تحدث سيبويه عن الضاد في المخارج فقال فيها «ومن بين أول حافة اللسان، وما يليها من الأضراس، مخرج الضاد.. وفي حديثه عن الحروف الفرعية تحدث عن صوت آخر، سماه الضاد الضعيفة، وجعل هذا الصوت مستقبحاً بغير تعليل، بقوله: «أن الضاد تتكلف من الجانب الأيمن وإن شئت تكلفتها من الجانب الأيسر، وهو أخف، لأنها من حافة اللسان مطبقة¹⁷. وقد اعتبر سيبويه الضاد من الأصوات الفرعية، وسماها الضاد الضعيفة وميزها عن غيرها بعدم مشاركتها لأي صوت في حيز من الأحياز الصوتية في الجهاز النطقي، وهذا ما زادها غموضاً، كما أنه أشرب جميع الحروف الفرعية حروفاً أخرى غيرها، الكاف كالجيم، والصاد كالسين، والطاء كالتاء...

- الصاد التي كالسين: تعد الصاد صوتاً مهموساً رخواً مطبقاً صغيراً، والسين تشارك الصاد في كل شيء إلا في الإطباق، ذلك أن السين مرقق منفتح ومخرجها (ما بين طرف اللسان وفوق الثنايا¹⁸). ولعل اشتراك الصاد مع السين في المخرج والصفات كافٍ لأن يجعل أحدهما بدلاً من غيره، لما بينهما من تقارب، ومع هذا فقد وصف سيبويه هذه الصورة بالاستقباح عندما يبدل فيها الصاد سيناً ولم يعلل سيبويه استقباح هذه الصورة الصوتية، وقد يكون راعى فيها استئفال الصوت ونزوله من القوة إلى الضعف، عندما يزول عنه الإطباق، وإزالة الإطباق عن الصاد ينجم عنه تغيير دلالي، حيث يتحول (الصد) (سداً) (الصبر) (سبراً).

- حروف المد واللين: قسم سيبويه (الألف، والواو، والياء) إلى أصوات مد ولين فقال: «حروف اللين هي حروف المد التي يمد بها الصوت وتلك الحروف: الألف والواو والياء¹⁹. أما الدرس الصوتي فيصف الحديث أصوات المد بأنها: صوت مجهور يخرج الهواء عند النطق به على شكل مستمر من الحلق والقم دون أن يتعرض لتدخل الأعضاء الصوتية تدخلاً يمنع خروجه أو يسبب فيه احتكاكاً مسموعاً²⁰.

¹⁶- الكتاب، سيبويه، 432/4.

¹⁷- نفسه، 433/4.

¹⁸- نفسه، 433/4.

¹⁹- نفسه، 426/4.

²⁰- أصوات اللغة، عبد الرحمن أيوب، ط2، مطبعة الكيلاني، القاهرة 1968م. ص: 180.

- الطاء التي كالتاء: لم يمثل سيبويه لهذا الصوت أيضاً. لكن قد يفهم أن المقصود به، صوت ينطق بين الطاء والتاء. وقد مثل بعض اللغويين لهذا الصوت بكلمة "طالب" التي تصبح "تالب"، وكلمة "طال" التي تصبح "تال".²¹ ويبدو أن السبب في جعل هذا الصوت ضمن الأصوات غير المستحسنة كونه لا يمثل تنوعاً صوتياً متفرعاً عن وحدة صوتية، وإنما هو انحراف نطقي ناشئ عن عدم الألفة لنطق أصوات التفخيم العربية.

- الطاء التي كالتاء: لم يمثل سيبويه في كتابه لهذا الصوت أيضاً. ومن المعلوم أن صوتي الطاء والتاء يتوحدان في ملمح المخرج، وهو المخرج الأسنان، غير أنهما يختلفان في ملمحي الجهر والتفخيم الخاصين بالطاء، والهمس والترقيق الخاصين بالتاء. لكن عندما يقول سيبويه الطاء التي كالتاء فمعناه أن الطاء تعرضت لفقدان الجهر والتفخيم في آن واحد، فانقلبت إلى هذا الصوت، الذي تحدث لنا عنه، والذي مثل له اللغويون بكلمة "ظلم"، التي تصبح "ظلم".

ثانياً. حروف العربية من حيث المخارج

عرف سيبويه أعضاء الجهاز النطقي ووصفها وصفاً دقيقاً اعتماداً على آلية النطق، وهكذا وزع سيبويه مخارج الحروف إلى ستة عشر مخرجاً²²، تجري متسلسلة من الحلق إلى الشفتين على هذا النحو:

- 1- أقصى الحلق، وهو للهمزة والهاء والألف.
- 2- وسط الحلق، وهو مخرج العين والحاء.
- 3- أدنى الحلق من الفم، وهو للعين والحاء.
- 4- من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى مخرج القاف.
- 5- من أسفل من موضع القاف من اللسان قليلاً وما يليه من الحنك الأعلى مخرج الكاف.
- 6- من وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الأعلى مخرج الجيم والشين والياء.
- 7- من بين أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس مخرج الضاد.
- 8- من حافة اللسان من أدناها إلى منتهى طرف اللسان ما بينهما وبين ما يليها من الحنك الأعلى، وما فوق الضاحك والنايب والرباعية والثنية مخرج اللام.
- 9- من طرف اللسان بينه وبين ما فوق الثنايا مخرج النون.
- 10- من المخرج السابق غير أنه أدخل في ظهر اللسان قليلاً لانحرافه إلى اللام مخرج الراء.
- 11- مما بين طرف اللسان وأصول الثنايا مخرج الطاء والذال والتاء.
- 12- مما بين طرف اللسان وفويق الثنايا مخرج الزاي والسين والصاد.
- 13- مما بين طرف اللسان وأطراف الثنايا مخرج الطاء والذال والتاء.
- 14- من باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العلى مخرج الفاء.

²¹ - همع الهوامع، السبويطي، ج2/230

²² - الكتاب، سيبويه، 4/432.

15- مما بين الشفتين مخرج الباء والميم والواو.

16- من الخياشيم مخرج النون الخفيفة.

أما المحدثون فقد وزعوا مخرج الأصوات اللغوية الرئيسة على عشرة مخرج، كما أوردها تمام حسان على النحو الآتي²³:

1. الشفتان: ويسمى الصوت الخارج منهما شفويًا أو (شفتاني Bilabial) وعند النطق تقفل الشفتان أو تنفرجان أو تستديران، والأصوات الخارجة من هذا المخرج هي (الباء، الميم، الواو)

2. الشفة السفلى مع الأسنان العليا: ويسمى الصوت الخارج منهما شفويًا أسنانياً (Labio Dental) وينطق بتضيق مجرى الهواء عند اتصال الشفة السفلى بالأسنان العليا، والصوت الخارج منه هو (الفاء) في العربية الفصحى.

3. الأسنان: ويسمى الصوت الخارج من هذا الموضع أسنانياً (Dental) وينطق عند اتصال طرف اللسان بالأسنان العليا والأصوات الخارجة منه: (الذال، الطاء، الثاء).

4. الأسنان مع اللثة: ويسمى الصوت الخارج منهما أسنانياً لثويًا (Denti-alveolar) ويخرج الصوت عند اتصال طرف اللسان مع الأسنان العليا، ومقدمة اللسان باللثة وهي (أصول الثنايا) وهذا المخرج من أغنى المخرج بالأصوات اللغوية، والأصوات الخارجة هي: (الذال، والصاد، والتاء، والطاء، والزاي، والسین، والصاد)

5. اللثة: ويسمى الصوت الخارج منها لثويًا (Alveolar) ويخرج الصوت عند اتصال طرف اللسان باللثة، والأصوات الخارجة منهما هي: (اللام، والراء، والنون).

والمخرجان الرابع والخامس متقربان جداً، لذلك نرى أن علماء الأصوات قد اختلفوا في تحديد أصوات كل مخرج، فبعض منهم عدّ (الزاي، والسین، والصاد) لثوية، و (اللام، والنون) أسنانية لثوية

6. الغار: ويسمى الصوت الخارج منه غارياً (Palatal)، ويخرج الصوت عند اتصال مقدم اللسان بالجزء الصلب الذي يلي اللثة ويسمى الغار. والأصوات الخارجة منه هي: (الشين، والجيم، والياء).

7. الطبق: ويسمى الصوت الخارج منه طبقيًا (Velar) وينتج هذا الصوت عند اتصال مؤخر اللسان بالطبق (وهو الجزء الرخو من مؤخر سقف الحنك). والأصوات الخارجة منه هي (الكاف، والغين، والحاء).

8. اللهاة: ويسمى الصوت الخارج منها لهويًا (Uvular)، وينتج الصوت عند اتصال مؤخر اللسان باللهة (وهي آخر جزء من مؤخر الحنك) والصوت الخارج منها هو صوت (القاف) فقط.

9. الحلق: ويسمى الصوت الخارج منه حلقياً (Pharyngal) وينطق الصوت عند تضيق منطقة الحلق ويخرج منه صوتان هما (العين، والحاء).

10. الحنجرة: ويسمى الصوت الخارج منه حنجريًا (Glottal)، وينتج الصوت عند إقفال الوترين الصوتيين أو تضيقهما في قاعدة الحنجرة، والأصوات الخارجة من هذا المخرج هما (الهمزة، والهاء).

وبناء على ما سبق يتضح أن سبويه رتب مخرج الأصوات ترتيباً تصاعدياً ابتداءً بالحلق وانتهاءً بالشفيتين والخيشوم، وهذا يخالف ما في الدراسات اللغوية الحديثة، حيث تبدأ بالشفيتين وتنتهي بالحنجرة.

ومن جملة ما اختلف واتفق حوله سبويه والمحدثين ما يلي:

²³ - مناهج البحث اللغوي، تمام حسان، مكتبة الأنجلو المصرية، ط1، 1955م، 84-85.

- مفهوم الحلق فهو عند سيبويه والذين جاءوا بعده موضع الإخراج الاول (من الداخل)، وقد قسم هذه المنطقة التي سماها بالحلق إلى ثلاثة أقسام، وهي: أقصى الحلق، وأوسطه، وأدناه ثم جعل لكل قسم من هذه الأقسام صوتين اثنين، باستثناء أقصى الحلق الذي جعل له ثلاثة اصوات هي؛ الهمزة والهاء والألف
- وجود الألف ضمن مجموعة الأصوات الحلقية (أقصى الحلق) عند سيبويه، على الرغم من أنه جعل الهمزة بداية لها، وجعله الهمزة في بداية تلك المجموعة يدل حقيقة على دقة وحسن ومذاق.
- كان سيبويه دقيقاً إلى درجة فائقة في تحديده مجموعة الأصوات الشفوية، فجاءت الدراسات اللغوية الحديثة مطابقة له.
- ومن خلال مخرج الفم عند سيبويه يظهر بوضوح أنه قد أدرك أنّ الصوت يتكوّن باتصال عضوين من أعضاء النطق اتصالاً محكماً... وتبدو دقة سيبويه في صورة أوضح حين يصف لنا مخرج اللام، فيقول: أنّها من حافة اللسان من أدناها إلى منتهى طرف اللسان، ما بينهما وبين ما يليها من الحنك الأعلى وما فوق الضاحك والناب والرابعة والثنية. في حين أنّ الهمزة يتكفون بقولهم " أنّ اللام تتكون باتصال طرف اللسان بأصول الثنايا.²⁴
- بعد هذه المقارنة، نستطيع أن نقول أنّ ما توصل إليه سيبويه من تحديد لمخارج الأصوات يعد عملاً علمياً رائعاً، يدل على ذكاء صاحبه، وحسن تذوقه للأصوات، دون أن يستخدم الوسائل والأجهزة العلمية الحديثة لتحديد تلك المخارج، كما هو الحال عند العلماء المحدثين.
- ثالثاً. حروف العربية من حيث الصفات
- لقد كان لسبويه فضل السبق في تفصيل الحديث عن صفات الحروف حديثاً يتسم بالأصالة والجدة والدقة على الرغم من سبق أستاذه الخليل له؛ فقد كانت دراسته أكثر شمولاً، وأوضح تعبيراً، وأبعد أثراً في الدرس الصوتي، فذكر من الصفات ما هو متقابل، كالجهور والمهموس، والشديد والرخو وما بينهما، والإطباق والانفتاح، والاستعلاء والاستفال، والتفخيم والترقيق. ومنها ما هي منفردة مثل القلقة، والصفير، والتكرار، والانحراف، والتفشي، والغنة. معتمداً في ذلك على معيار تحكم جهاز النطق في الهواء الخارج من الفم. وسنحال أن نقف عند بعض هذه الثنائيات؛
- الجهر والهمس: وصف سيبويه الصوت الجهور بقوله: " إنّ الجهور حرف أشيع الاعتماد في موضعه، ومنع النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد عليه ويجري الصوت.. والأصوات الجهورة عند سيبويه هي: (ع غ ج ي ق ط ء ل ر ن د ض ز ذ ظ ب م و)"²⁵
- أما الجهر عند المحدثين فيحدث في الحنجرة حين يتضام الوتران الصوتيان، ويؤدي ضغط هواء الزفير إلى فتحهما ثم انطباقهما بسرعة كبيرة، وينتج عن ذلك نغمة صوتية واضحة، هي الجهر الذي يصاحب نطق عدد من أصوات اللغة²⁶.
- ويتضح من خلال هذا التعريف أن هناك اتفاقاً بين العلماء المحدثين وسبويه في تعريفهما للجهر، وإن اختلفت صيغ التعريفين إلا أنّ النتيجة واحدة، فإذا ما لاحظنا تعريف سبويه السابق وتعريف المحدثين، فإنه يتضح أنّ الصوت الجهور يحدث عندما ينطبق الوتران

²⁴ -الأصوات اللغوية، ابراهيم أنيس، ص.97.

²⁵ -الكتاب، 434/4.

²⁶ -الأصوات اللغوية، ابراهيم أنيس، ص.101-102

الصوتيان على بعضهما. أما الحروف المهموسة فقد وصفها بأنها حرف " أضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى النفس معه، وجعل عدد الحروف المهموسة عشرة وهي (الهاء، والحاء، والخاء، والكاف، والشين، والسين، والتاء، والصاد، والتاء" ²⁷ يظهر جلياً من تعريف سيبويه للمهموس والمجهور أنه اعتمد على تيار الهواء في اختبار همس والجهر في الأصوات. صحيح أن تيار الهواء يثير الوترين الصوتين، إلا أن ظاهرة طرد الهواء من الرئتين تحدث مع كل الأصوات المهموسة والمجهورة، ويبقى السبب المباشر الذي يفصل المهموس والمجهور هو ذبذبتهم أو عدمها ²⁸.

وتنحصر مظاهر الاختلاف بين علماء العربية والمحدثين من حيث عدد الأصوات المهموسة والمجهورة، في ثلاثة أصوات هي، الهمزة والقاف والطاء. فقد عدها سيبويه ضمن الأصوات المجهورة، في حين عدت هذه الأصوات ضمن الأصوات المهموسة وفقاً للنطق الحالي لها في اللغة العربية الفصحى. وعلى الرغم من أن سيبويه لم يكن على معرفة بدور (الوترين الصوتيين) في التحكم بطبيعة الصوت لم تكن نتائج وصفه بعيدة عن وصف المحدثين لأصوات الحروف المجهورة والمهموسة.

● الشدة والرخاوة: عرف سيبويه الصوت الشديد بأنه " الذي يمنع الصوت أن يجري فيه" وعدها ثمانية وهي الهمزة، والقاف، والكاف، والجيم، والطاء، والتاء، والذال، والباء. أما الأصوات الرخوة فهي التي يجري فيها الصوت وهي الهاء، والحاء، والغين، والحاء، والشين، والصاد والضاد، والزاي، والسين، والطاء، والتاء، والذال، والفاء. وجعل حرف العين مثلاً لما هو بين الشدة والرخاوة، فقال: وأما العين فبين الرخوة والشدة، تصل التردد فيها لشبهها بالحاء ²⁹ ثم وصف حروف «اللام، والراء، والنون، والميم» بشيء قريب منه، أو ذهب إلى أنها حروف شديدة، ولكن الصوت يجري معها لأسباب مختلفة. ³⁰ ولا يخرج الوصف الحديث عما ذهب إليه سيبويه، فيطلق البحث الصوتي الحديث صفة (الصوت الانفجاري Plosive) على الصوت الشديد، والاحتكاكي Fricative على الصوت الرخو؛ غير أن سيبويه - في تصنيفه للأصوات الرخوة (الاحتكاكية) قد عد صوت الضاد صوتاً رخواً، في حين تعده الدراسات الصوتية الحديثة صوتاً شديداً انفجارياً.

● الأصوات المكررة: تقتصر هذه المجموعة على حرف واحد هو "الراء" وهو حرف شديد يجري فيه الصوت لتكريره وانحرافه إلى اللام، فتجافي للصوت كالرخوة، ولو لم يكرر لم يجر الصوت فيه ويقول في موضع آخر: «والراء إذا تكلمت بها خرجت كأنها مضعفة، والوقوف يزيدا أيضاً» ³¹. والمحدثون يحددون التكرير بالمعنى نفسه الذي حدده سيبويه، يقول إبراهيم أنيس: «لأن التقاء طرف اللسان بحافة الحنك مما يلي الثنايا العليا يتكرر فيها النطق بها، كأنما يطرق طرف اللسان حافة اللسان حافة الحنك طرفاً ليناً يسيراً مرتين أو ثلاثاً» ³².

²⁷ -الكتاب، سيبويه 434/4.

²⁸ -علم الصوت العربي في ضوء الدراسات الصوتية. قاسم البريسم، ص.171.

²⁹ -الكتاب، 435-434/4.

³⁰ - نفسه، 435/4.

³¹ - الكتاب، 435/4.

³² - الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، 67.

- مجموعة الأصوات ذات الغنة: تشمل هذه الأصوات صوتي النون والميم وهما - كما وصفهما سيبويه - شديدان يجري معهما الصوت؛ « لأن ذلك الصوت غنة من الأنف، فإنما تخرجه من أنفك واللسان لازم لموضع الحرف، لأنك لو أمسكت بأنفك لم يجر معه الصوت وهو النون والميم³³ وأضاف بعض المحذنين للنون، والميم صوت التنوين، والتنوين من الوجهة الصوتية نون ساكنة.
- مجموعة الأصوات اللينة: تشتمل هذه المجموعة الصوتية - عند سيبويه - على صوتي الواو والياء، لأن مخرجهما يتسع لهواء الصوت أشد من اتساع غيرهما³⁴.
- مجموعة الأصوات الهاوية: تقتصر هذه المجموعة الصوتية - عند سيبويه - على صوت واحد فقط هو الألف. وقد وصف سيبويه هذا الصوت بقوله: "إنه حرفٌ اتسع لهواء الصوت مخرجه أشد من اتساع مخرج الياء والواو"³⁵. وعلى الرغم من كون سيبويه قد صنف الواو والياء في مجموعة صوتية مستقلة عن الألف، واعتبرهما مجموعتين منفصلتين، إلا أننا نجد في مواضع كثيرة من كتابه يعامل هذه الأصوات الثلاثة معاملة تكاد تكون واحدة.
- المطبقة: وتشمل أصوات الصاد، والضاد، والطاء، والظاء، حيث يطبق - كما يذكر سيبويه - معهن اللسان برفعه إلى الحنك الأعلى - وهو الطبق - وانطباقه من مواضعهن إلى ما يحاذي الحنك الأعلى من اللسان، وبحيث يكون الصوت محصوراً فيما بين اللسان والحنك إلى موضع الحروف³⁶. ثم قارن سيبويه بين هذه الأصوات الأربعة، ونظائرهما المرفقة قائلاً: "فهذه الأربعة لها موضعان من اللسان، وقد بين ذلك بحصر الصوت، ولولا الإطباق لصارت الطاء دالا، والصاد سينا، والطاء ذالا، ولخرجت الضاد من الكلام لأنه ليس شيء من موضعها غيرها³⁷. وهو يقصد بكلامه هذا، أن اللسان، في حالة إنتاج هذه الأصوات، ينطبق على سقف الحنك الأعلى في موضعين اثنين لا في موضع واحد، كما هو الحال في الأصوات غير المطبقة، مثل: الدال والزاي، حيث ينص سيبويه على أن هذين الصوتين - ونحوهما " ينحصر الصوت إذا وضعت لسانك في مواضعهن³⁸.
- المفتحة: كل ما سوى حروف الإطباق، وتمتاز هذه المجموعة من الأصوات، بأن اللسان - كما يذكر سيبويه - لا يطبق معها برفعه إلى الحنك الأعلى، وإنما ينحصر الصوت عند وضع اللسان في مواضعهن³⁹.

³³ - الكتاب، 4/435

³⁴ - نفسه، 4/435

³⁵ - نفسه، 4/435

³⁶ - نفسه، 4/435

³⁷ - نفسه، 4/435

³⁸ - نفسه، 4/435

³⁹ - نفسه، 4/435

خاتمة:

وختاماً فقد حاولنا إلقاء الضوء على الغرس الصوتي البكر، الذي أودعه شيخ العربية سيوييه بتألق وتفوق، في أحشاء التربة اللغوية في وقت جد مبكر من عمر الحضارة الإنسانية ومسيرتها، والتي تدل على توقد ذهن هذا العالم وعبقريته، وطاقته الفكرية العميقة في دراسته للحروف العربية وتحديد مخارجها وبيان صفاتها وملاحظاتها، إلى درجة أن الباحث ليصاب بالدهشة بتلك النتائج الباهرة التي وصل إليها دون أن تتوافر لديه وسائل الدرس المعاصر في علم الأصوات. يقول إبراهيم أنيس " إن دراسة علمائنا للأصوات العربية لا يضاهاها في العمق والدقة والاستقصاء جميع الدراسات التي يقوم بها اللغويون الآن فيما يسمونه علم الأصوات اللغوية، ويضيف قائلاً: "كانوا أول الرواد لعلم الأصوات اللغوية وعلى كثير من ملاحظاتهم بنيت المباحث الحديثة في مخارج الأصوات وصفاتها".

وصفوة القول، لقد كان سيوييه في درسه للغة بمستواها الصوتي أستاذاً مالكا لخاصية اللغة، وشيخاً عالماً بأسرارها، ومعلماً هادياً إلى الكثير من دقائقها. فكانت القواعد المكنية والأسس الرصينة التي وضعها منها صافياً اعترف منها العلماء الذين جاءوا بعده وما قدمته في هذا البحث- المتوضع- ما هو إلا غيض من فيض، ومحاولة للاقترب من أهم القضايا الصوتية التي وردت في كتابه، وإلا فالحديث عن إسهامات سيوييه في الدرس الصوتي يحتاج إلى بحث عميق ربما لا تستوعبه هذه الأوراق المعدودة.

مصادر ومراجع

1. سيوييه، عمرو بن عثمان: كتاب سيوييه، ط: 3. تحقيق: عبد السلام هارون بيروت: عالم الكتب. 1973م.
2. ابن جنّي، أبو الفتح عثمان: سر صناعة الإعراب. ط: 1. تحقيق: مصطفى السقا وآخرين. القاهرة: شركة مكتبة ومطبعة البابي الحلبي 1954م.
3. تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب. 1973.
4. تمام حسان: مناهج البحث في اللغة. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية. 1955م.
5. السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين: همع الهوامع، شرح جمع الجوامع في علم العربية. بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر.
6. إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية، ط: 5. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية. 1975م.
7. د. قاسم البريسم: علم الصوت العربي في ضوء الدراسات الصوتية الحديثة، ط: 1. إفريقيا الشرق- المغرب. 2018م.

هذا الكتاب منشور في

شبكة الألوكة

www.alukah.net